

الصعاليك و شعرهم في العصر الجاهلي

الدكتور حسن سرباز*

ملخص البحث

حياة الصعاليك إحدى مظاهر الحياة الجاهلية التي يلفت الغموض بعض جوانبها. و الصعاليك هم المتمردون على الأوضاع و التقاليد القاسية السائدة في المجتمع الجاهلي، و هم الخلعاء الذين خلعتهم قبائلهم و الأعرية الذين نبذهم آبائهم.

و تهدف هذه المقالة إلى إلقاء الضوء على ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي و بيان أخلاق الصعاليك و خصائصهم كما تهدف إلى بيان مكانة شعرهم من بين الشعر الجاهلي و أهم مضامينه و خصائصه.
الكلمات الدلالية: العصر الجاهلي، الشعر الجاهلي، الصعاليك، الفقر، الإيثار، الثورة على الواقع.



المقدمة

الحياة الجاهلية لها جوانب مختلفة لا يستطيع الدارس أن يلمّ بها إماماً كاملاً، و ذلك لامتداد العصر الجاهلي إلى فترات مختلفة من التاريخ لا نعرف منها شيئاً سوى ما أشير إلى بعضها بصورة موجزة في القرآن الكريم، و الأحاديث النبوية الشريفة، و ما قيل على السنة الشعراء و القصاصيين و الرواة المحترفين. و في الحقيقة ما وصلنا من

العصر الجاهلي إلى امتداده وسعته قليل جداً وربما لعبت به ذاكرة الرواة مما جعله في معرض التحريف والضياع والانتحال.

وحياة الصعاليك هي أحد مظاهر الحياة الجاهلية، وهم المتمردون على الأوضاع والتقاليد القاسية السائدة على المجتمع الجاهلي، وهم الخلعاء والأعربة الذين ثاروا على قانون القبيلة وحملوا السيف لإعادة التوازن الاجتماعي إلى حياة مجتمع اختلت موازينه ومقاييسه.

وفي هذه المقالة نرغب أن نلقي الضوء على ظاهرة الصعلكة في العصر الجاهلي ونشير إلى شعر الصعاليك وأهم ميزاتهم الشعرية.

الصعلكة ومفهوم الصعلوك

الصعلكة في اللغة بمعنى الفقر، والصعلوك هو الفقير الذي لا مال له ولا اعتماد. ويقال تصعلك الرجل إذا افتقر، ومن هذا المعنى قول حاتم الطائي:

غنيما زماناً بالتصعلك والغنى فكلا سقانه بكاسيهما الدهر
فما زاننا بغيماً على ذي قرابة غنانا ولازرى باحسابنا الفقر

وقال جابر بن ثعلبة الطائي:

كانّ الفتى لم يعر يوماً إذا اكتسى ولم يك صعلوكاً إذا ما تموّلاً

وروي أن النبي (ص) كان يستنصر بصعاليك المهاجرين أي فقرائهم.^٢

ففي هذه النصوص قد استعمل لفظ الصعلوك للفقير الذي لا يملك من المال ما يعينه على أعباء الحياة، ولكن لم تقف هذه اللفظة في الجاهلية عند دلالتها اللغوية الخالصة، بل قد أخذت تدل على من يتجردون للغارات وقطع الطرق وسمّوا بالصعاليك، ونجد منهم في الجاهلية ثلاث مجموعات:

١- مجموعة من الخلعاء الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم مثل حاجز الأزدي وقيس بن الحدادية وأبي الطمحان القيني.

٢- مجموعة من أبناء الحبشيات السود، ممن نبذهم أبائهم ولم يلحقوهم بهم لعار

١. ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار احياء التراث العربي، ١٩٨٨م، الطبعة الأولى، ج٧، ص ٣٥٠.

٢. احمد حوفي، الحياة العربية من الشعر الجاهلي، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة، ص ٢٩٩.

ولادتهم، مثل السليك بن السلكة، وتأبط شراً والشنفرى، وكانوا يشركون أمهاتهم في سوادهم، فسمّوهم وأضرابهم (أغربة العرب).

٣- مجموعة لم تكن من الخلعاء ولا من أبناء الإمام الحبشيات، غير أنها احترفت الصعلكة احترافاً، وهذه المجموعة قد تكون أفراداً مثل عروة بن الورد العبسي، وقد تكون قبيلة برمتها مثل قبيلتي هذيل وفهم اللتين كانتا تنزلان بالقرب من مكة والطائف على التوالي.^١

أخلاق الصعاليك وخصائصهم

بالرجوع إلى حياة الصعاليك وأشعارهم، نرى أنهم يتميزون بما يلي:

أ - الفقر وحدة الجوع:

فبالرجوع إلى أخبار الصعاليك، نجد أن الفقر صفة بارزة ومميزة لديهم، فكل الصعاليك كانوا فقراء حتى عروة بن الورد سيد الصعاليك كان صعلوكاً فقيراً مثلهم، ولذلك نجد في شعره كثيراً من وصف حالة الفقر وما يتكبّده في سبيل الغنى من جهد ومشقة من أجل نفسه وأصحابه الصعاليك فيقول داعياً الناس إلى طلب الغنى:

دعيني للغنى اسعى فإني	رايت الناس شرهم الفقير
وابعدهم واهونهم عليهم	وإن امسى له حسب وخير
ويقصيه الندي وتزديبه	حليلته وينهره الصغير

و في موضع آخر يحضّ الناس على طلب الامعاش و رفض الذل و السؤال و يقول:

إذا المرء لم يطلب معاشاً لنفسه	شكا الفقر او لام الصديق فاكثر
وصار على الأدينين كلا و اوشكت	صلات ذوي القربى له ان تنكرا
وما طالب الحاجات من كل وجهة	من الناس إلا من اجد و شمرا
فسير في بلاد الله والتمس الغني	تعش ذا يسار او تموت فتعدرا

وفي الحقيقة كان الفقر وشدة الجوع من الأسباب الرئيسية التي أثارت حفيظة هذه

١. شوقي ضيف، العصر الجاهلي، القاهرة، دار المعارف، ص ٣٧٥.

٢. ابن سكيته، شرح ديوان عروة بن الورد، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤، ص ٦٣.

٣. نفس المصدر، ص ٦١-٦٢.

الفئة من الناس وجعلتهم قطاع طرق يسلكون أسلوب القوة والتمرد.

ب - الثورة على واقعهم الاجتماعي والابتعاد عن الحياة القبيلة وما فيها من أعراف ظالمة، والتوجه إلى الطبيعة وما فيها من حياة فطرية بحيث يعدون الحياة مع الذئاب والنمور والضباع أفضل من الحياة مع قومهم الذين خذلوهم واحتقروهم.^١

يقول الشنفرى في لاميته:

اقِيمُوا بَنِي امِي صَدُورَ مَطِيكُمْ فَقَدْ حَمَتِ الْحَاجَاتِ وَاللَّيْلَ مَقْمَرِ وَفِي الْاَرْضِ مَنَاءً لِلْكَرِيمِ عَنِ الْاَذَى وَلِي دُونَكُمْ اَهْلُونَ سَيِّدًا عَمَلَسَ هَمُّ الْاَهْلِ لَا مَسْتُوْدَعُ السَّرِّ دَائِعَ	فَانِي اِلَى قَوْمِ سِوَاكُمْ لَا مَبِيْلَ وَشَدَّتْ لَطِيَّاتِ مَطَايَا وَارْحَلِ وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلْبَى مَتْعَزَلِ وَارْقُطْ زَهْلُولَ وَعَرْفَاءَ جِيَالِ لَدِيهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يَخْذَلِ
--	---

ج - الفخر بالشجاعة والعدو السريع، لأنهم كانوا شجعاناً مغامرين لا يبالون بالموت في سبيل تحقيق أغراضهم. فحياتهم تتطلب مثل هذه الصفات، فهم كانوا دائماً في حالة مطاردة وكرّ وفرّ وتضرب بهم الأمثال في شدة العدو، فيقال: (أعدى من الشنفرى)^٢، وامتازوا جميعاً بسرعة الحركة والخفة والعدو والخبرة بدروب الصحراء. يقول عروة بن الورد في جواب زوجته التي كانت تلومه على حياته القائمة على المخاطر والغزوات:

اقْلِي عَلَيَّ اللُّومَ يَا بِنْتَ مَنْذِرِ دَرِينِي وَنَفْسِي، اُمِّ حَسَانَ اِئْتِي اِحَادِيثَ تَبْقَى، وَالْفَتَى غَيْرَ خَالِدِ دَرِينِي اَطْوَفَ فِي السِّبَالِدِ لَعَلَّنِي فَاِنْ فَازَ سَهْمٌ لِلْمَنِيَّةِ لَمْ اَكُنْ	وَنَامِي وَاِنْ لَمْ تَشْتَهِي النَّوْمَ فَاَسْهَرِي بِهَا قَبْلَ اَنْ لَا اَمْلِكُ الْبَيْعَ مَسْتَرِي اِذَا هُوَ اَمْسَى هَامَةً فَوْقَ صَيْرِ اَخْلِيكَ اَوْ اَغْنِيكَ عَنِ سَوْءِ مُحَضَّرِي جَزُوعاً وَهَلْ عَنِ ذَاكَ مِنْ مَتَاخَّرِ
---	---

ويقول في وصف الصعلوك الحقيقي:

وَلَكِنْ صَعْلُوكًا صَحِيْفَةً وَجْهَهُ مَطْلًا عَلَيَّ اَعْدَائِهِ يَزْجُرُونَهُ	كضوء شهاب القابض المتنوّر بساحتهم زجر المنيح المشهر
--	--

١. محمد علي آذرشب، الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الاموي، طهران، سمت، ١٣٨١، الطبعة الرابعة، ص ٨٧.

٢. الشنفرى، ديوان الشنفرى، بيروت، دارالكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، صص ٥٨-٥٩.

٤. الميداني النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد، مجمع الأمثال، بيروت، دار المعرفة، ج ٢، ص ٤٦.

٤. ابن سكيت، المصدر السابق، صص ٤٥-٤٦.

إذا بَعَدُوا لا يَأمَنونَ اقترابَه تشوَّفَ اهلَ الغائبِ المتنظِّرِ
فذلكَ إن يَلقَ المنيةَ يلقها حميداً، وإن يستغن يوماً فاجدراً
فالصعلوك الحقيقي عند عروة بن الورد هو الصعلوك الشريف الأبِّي الذي يتلألأُ
وجهه قوَّةً و نضارة كأنه كوكب منير، و هو الصعلوك الجريء المغامر الذي يرعب
أعداءه و لا يبالي بهم، فإن قتل كان مشكوراً مذكوراً بالجرأة، وإن غنم كان بالغنيمة
جديراً.

د - **تحمل المشاق ابتعاداً عن الذل**، وهذه قيمة رفيعة تطرَّق إليها أشعار الصعاليك.
فهم أباة ضيم لا يقبلون الذل في سبيل لقمة العيش ويفضّلون الجوع على الذل والموت
على الخضوع، يقول أبو خراش الهزلي:

وإني لأتوي الجوع حتى يملني واغْتَبِقَ الماءَ القراحَ فانتهي
مخافة أن احيا برغمٍ ودلّة وللموت خير من حياةٍ على رغمٍ
فهو يتحمل الجوع حتى ينكشف عنه دون أن يقبل فيه ضيماً و عاراً، و يكتفي بشرب
الماء القراح، بينما البخلاء حوله يتمتعون بأنواع الأطعمة والأشربة، ويفعل كل ذلك
حتى لا يوصم بعار و يبتعد عن الذلة والخضوع، لأن الموت عنده أولى من حياة فيها
إرغام.

و الصعاليك كانوا يفضلون تحمل الجوع على قبول منة الآخرين.^٣ يقول الشنفرى
في ذلك:

أديم مطال الجوع حتى أميته واضربَ عنه الذكر صفحاً، فأذهل
واستفّ ترب الأرض كي لا يرى له علي من الطول امرؤ متطوّل
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب يعاش به إلا لذي وماكل
ولكن نفساً حرّة لا تقسيم بي على الذام، إلا ريثما اتحول
فهو يتحمل الجوع ويتجوّل في الفلوات و يبتلع غبارها كي لا يرى منة الممتئين
وتكبر المتكبرين، و لا يتحمل كل هذا لعجزه، بل لولا تجنّب النقص والعار لكان

أفاق الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس و العشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ٣

١. نفس المصدر، ص ٥١-٥٢.

٢. محمد علي أدرشيب، المصدر السابق، ص ٨٨.

٤. محمد عبدالمنعم الخفاجي، دراسات في الأدب الجاهلي والاسلامي، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢م، ص ١٧٧.

٤. الشنفرى، المصدر السابق، صص ٦٢-٦٣. ٧

يستطيع أن ينال كل ما يشتهيهِ ولكن نفسه الأبية تأبى عليه أن يبقى على ذلّ وهوان.
هـ - الإيثار والكرم: ويصل الصعاليك إلى مثالية خلقية رفيعة لا تقل جمالاً عن مثالية عنتر بن شداد العبسي حين يتحدّثون عن إيثار الآخرين على أنفسهم، وبذلهم للفقراء والمعوزين، وكأنما تحوّلت الصعلكة في أواخر العصر الجاهلي إلى نظام يشبه نظام الفروسية، لأنها وإن كانت قائمة على السلب والنهب ولكنهم كانوا لا يسلبون ولا ينهبون سيّداً كريماً بل إنما كانوا يسلبون البخلاء الأشحاء^١.
يقول عروة بن الورد في جواب أخيه الأكبر الذي كان يلومه على نمط عيشه و صعلكته و يفخر عليه برفاهيته:

إني امرؤ عافي إنائي شركة وانت امرؤ عافي إنائك واحد
أتهزأ مني إن سمّنت وأن ترى بوجهي شحوب الحق والحق جاهد
أقسّم جسمي في جسوم كثيرة واحسب قراح الماء والماء بارداً

وعروة يعبر عن معنى انساني رفيع، إذ عبّره أخوه الأكبر بالشحوب والهزال فيقول له: يشركني في إنائي كثير من الفقراء المحتاجين والعفاة المعوزين، وأنت تأكل وحدك ولا يشركك أحد، ولذلك سمّنت وأما أنا فأصبحت ضامر البطن، نحيل الجسم، وشاحب اللون، وما شحوب جسمي إلا أثر من آثار قيامي بحقوق هؤلاء المحتاجين، فلست أنا خليقاً بالهزاء والسخرية، بل أنت الأخرى بهما، ثم قال: أقسّم جسمي في جسوم الفقراء أي أقسّم طعامي بيني وبينهم، بل كثيراً ما أوترهم على نفسي.
و - أنهم لم يجدوا عيباً في عملهم، بل كانوا يفاخرون به ويرونه نوعاً من الفتوة و القصاص من البخلاء والتضامن الاجتماعي، يقول أحد الصعاليك مفتخراً:

وعياية للجود لم يدر أنني بإنهاب مال الباخلين موكل
غدوت على ما احتازه فحويته وغادرته ذا حيرة يتملّل

آراء الصعاليك الاجتماعية والاقتصادية

الظاهرة المهمة التي تلفت النظر في حياة الصعاليك الاجتماعية هي فقد

١. شوقي ضيف، المصدر السابق، ص ٣٧٦.

٢. ابن سكيت، المصدر السابق، صص ٣٤-٣٥.

٣. احمد حوفي، المصدر السابق، ص ٣٠٦.

الإحساس بالعصبية القبلية التي كانت قوام المجتمع الجاهلي و تطوّرها في نفوسهم إلى عصبية فنوية، و ذلك لأنّ الخلعاء و الشذاذ فقد تخلّط عنهم قبائلهم و سحبت منهم الجنسية القبلية، و أن الأغرابة فقد أدركوا أنّ قبائلهم لا تكاد تعترف بهم، بل تكاد تنكر صلتها بهم، إذن لم يكن هناك ما يوجب حرصهم على العصبية القبلية.^١ ولذلك قد انقلب الصعاليك على قبائلهم بعض الأحيان و وجّهوا غزواتهم إليها. فقد جاء في أخبار قيس بن الحدادية أنه لما خلعتة قبيلته، جمع لهم شذاذاً من العرب و فتاكاً من قومه و أغار عليهم بهم.^٢ وقد تحدّث الشعراء الصعاليك عن هذا الانقطاع بينهم و بين قبائلهم فأعلن أبو الطمّحان القيني أنّه قد نسي أهله في جوار من استجار بهم بعد خلعه و أصبح كأثمه واحد منهم حتى قد عرفت كلابهم ثيابه فما تهرّ عليه.

وقد عرفت كلابهم تيابي كائني منهم ونسيت اهلي
وتحدّثوا أيضاً عن كرمهم رغم فقرهم المدقع الذي هم فيه و صوروا جوعهم و
مكانتهم الاجتماعية في الدنيا، فقال عروة بن الورد:

إذا قلت قد جاء العنى حال دونه ابو صيبية يشكو المفاقر اعجف
له خلة لا يدخل الحق دونها كريم اصابته خطوب تجرف
فائي لمستاف السيلاد بسرية فمبلغ نفسي عذرها او مطوف
رايت بني لبنى عليهم غضاضة بيوتهم وسط الحلول التكتف

ورسم السليل بن السلّكة صورة الضم والهوان وسوء المعاملة التي تعانيها خالاته
الإماء السود بسبب لونهن وهو عاجز أن يفعل لهنّ ومن أجلهنّ شيئاً حتى ليشيب
رأسه مما يقاسيه نفسياً من أجلهن فيقول:

اشاب الراس اني كل يوم ارى لي خالة وسط الرجال
يشق علي ان يلقيين ضيماً ويعجز عن تخلصهن مالي

١. يوسف خليف، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، القاهرة، دار غريب، صص ١١٠-١١١.
٢. أبو الفرج الإصفهاني، الأغاني، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ج ١٤، ص ١٤٣.
٤. عمرو بن الجاحظ، الحيوان، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦م، ج ١، ص ٣٨١.
٤. ابن سكيت، المصدر السابق، ص ٧١.
٥. سليك بن السلّكة، ديوان السليلك، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م، ص ٨٩.

وظمّوح الصعاليك في حياتهم هو الغنى، وهو الهدف الذي يسعون اليه ولكنهم لكرمهم لا يدخرون المال حتى يصبحوا أغنياء، بل إنهم يوزّعونه على الفقراء والأيتام والمحتاجين.

شعر الصعاليك

حينما نقيس شعر الصعاليك بشعر بقية الشعراء الجاهليين المشهورين، نرى أن شعر الصعاليك قليل جداً بالنسبة إلى شعرهم، ولعلّ ذلك يرجع إلى أن الصعاليك كانوا شعراء مغمورين غير معروفين خرجوا على مجتمعهم وقبائلهم وتمردوا على أوضاعهم وتقاليدهم بحيث لم يحرصوا على قبائلهم ولم يهتموا بشؤون القبيلة في شعرهم، ولذلك لم تحرص القبائل أيضاً عليهم ولم يهتم بشعرهم رواة القبائل الذين كان لهم دور بارز في حفظ الشعر الجاهلي فضاع جزء كبير من شعرهم، ولكن مع ذلك فقد وصل إلينا بعض من شعرهم مبعثراً بين المصادر التالية:

أ - كتب الثقافة العربية المختلفة.

ب - مجموعات المختارات من شعر الشعراء.

ج - كتب التراجم.^١

وقد ذكر النقاد ثلاث ملاحظات على شعر الصعاليك وهي قلتها وكثرة الاضطراب في رواية نصوصها ثم الشك الذي يحيط ببعض نصوصها. أما قلتها فترجع إلى ضياع جزء كبير من شعرهم كما قلنا سابقاً. و الاضطراب في رواية نصوصها يرجع إلى تمردهم على قبائلهم وعدم رواية أشعارهم من جانب رواة القبائل و تبعثرها بين مصادر الأدب العربي المختلفة. و الشك في بعض نصوصهم مرده إلى قضية الانتحال في الشعر الجاهلي.^٢

١. محمد رضا مروّة، الصعاليك في العصر الجاهلي، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٩٠م، الطبعة الأولى، ص ٤٣.

٢. يوسف خليف، المصدر السابق، صص ١٦٣-١٦٤.

موضوعات شعر الصعاليك

١- المغامرة:

وهي ظاهرة طبيعية لفئة من الناس اتخذت الغزو والنهب قانون حياتها وتسلمت بالقوة والرجولة، فالشعراء الصعاليك يصفون كل ما يحدث في مغامراتهم منذ الشروع في وضع خطة الغارة إلى أن تنتهي الغارة بتحقيق أهدافها وهم يصفون في أثناء ذلك الطريق الذي سلكوه و يتحدثون عن رفاقهم في الغارة و دور كل واحد منهم كما يتحدثون عن كيفية انتهاء الغارة و عودة فتيان الصعاليك إلى ملاجئهم سالمين بعد القتل و السلب و النهب.

يصف الشنفرى في قصيدته الثانية غارة أغارها على بني سلامان في جمع من رفاقه الصعاليك و على رأسهم تأبط شراً، ونراه في مستهل وصفه يحدثنا أنه كان يقودهم ويعرفنا بالطريق الذي سلكوه، وأنهم كانوا راجلين يقتحمون الصعاب غير وجلين فيقول:

وباضعة حَمَرِ الْقِسِيِّ بَعَثْتَهَا
خَرَجْنَا مِنَ الْوَادِي الَّذِي بَيْنَ مِشْعَلِ
أَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ الَّتِي لَنْ تُضِرَّنِي
أَمْشِي عَلَى آيِنِ الْغَزَاةِ وَبَعْدَهَا
وَمَنْ يَغْزَى يَغْنَمُ مَرَّةً وَيَسْتَمِتُ
وَبَيْنَ الْجِبَاءِ هِيَهَاتَ، انْشَأَتْ سَرَبْنِي
لَأَنْكِي قَوْمًا أَوْ أَصَادِفَ حَمَّتِي
يَقْرَبْنِي مِنْهَا رَوَاحِي وَغُدُوتِي
ثُمَّ يَصُورُ لَنَا كَيْفَ كَانَتْ أُمُّ عِيَالٍ (تَأْبُطُ شَيْرًا) تَحْمَلُ زَادَهُمْ وَتَقْتَرُ عَلَيْهِمْ فِي الطَّعَامِ
خَيفَةَ أَنْ تَطُولَ الْغَزْوَةَ بِهِمْ فَيَمُوتُوا جُوعًا
وَأُمُّ عِيَالٍ قَدْ شَهِدَتْ تَقْوَتَهُمْ
تَخَافُ عَلَيْنَا الْعِيَالُ إِنْ هِيَ اكْتَرَتْ
إِذْ اطْعَمْتَهُمْ أَوْ تَخَّتْ وَأَقْلَبَتْ
وَنَحْنُ جِيَاعٌ أَيُّ الِ تَأَلَّتْ

٢- شعر المراقب

ونجد في شعر الصعاليك التحدّث عن تربّصهم بأعدائهم وتحين الفرصة المناسبة للانقضاض عليهم وكان التربص يتم من خلال المرتفعات المشرفة على الطرق والمسالك والتي كانوا يسمونها (المراقب). ويقومون بعملهم هذا مع بداية الليل، لأن الليل أحسن للتخفي والهرب، وفي الحقيقة الليل عندهم نهار. ويرسم الشنفرى لوحة بديعة لمراقبة منيعة عالية يعجز دونها الصياد الماهر، فيصف كيف أنه سعد إليها في

١. الشنفرى، المصدر السابق، ص ٣٤-٣٥.

شدة ظلام الليل و كيف قضى الليل فوقها متربصاً محذباً على ذراعيه فيقول:

ومر قبة عنقاء يقصّر دونها اخو الضروة الرجل الخفي المخفّ
نعيت إلى اعلى ذراها وقد دنا من الليل ملتف الحديقة اسدف
فبت على حد الزراعين محذباً كما يتطوى الارقم المتعطف

ويصف عمرو ذوالكلب المرقبة التي كان يتربص فوقها بأنها بعيدة واسعة
عالية و هو متربص فوق طرفها طول يومه يخفي نفسه حتى إذا حانت الفرصة
تحدّر فوقها تحدّر الماء الزلال:

ومر قبة يحار الطرف فيها تزل الطير مشرفة القذال
اقمت بريدها يوماً طويلاً ولم أشرف بها مثل الخيال
و لم يشخص بها شرفي و لكن دنوت تحدّر الماء الزلال

٣- التوعد والتهديد

وتحدث الصعاليك في شعرهم عن التوعد والتهديد، فالشغرى مثلاً يتوعد بني
سلامان الذين يناصبهم العدا والبغضاء ويكرههم حتى العظم، لأنهم كانوا السبب
المباشر في حياته السيئة وتصعلكه، فهو يتوعدهم ويهددهم ويتعهد أنه لن يكف عن
غزوهم، وكل ما يرجوه هو أن يمده الله بعمره حتى يشفي غليله منهم حين يلاقيهم في
عقر دارهم:

فإلا تزرني حتفتي أو تلاقني أمش بدهر أو عدا فنوراً
ابغي بني صعّب بن مرّ بدارهم وسوف الأقيهم إن الله أخرا
ويوما بذات الرس أو بطن منجل هنالك نبغي القاضي المتغوراً

ويخبر عمرو ذوالكلب أعداءه بأن الصراع بينه وبينهم سيكون مريراً لا رحمة فيه
و ينذرهم بأنه لا يرحمهم إذا غلب عليهم كما أنه لا يريد منهم رحمة إذا غلبوا عليه:

فإن اتقتموني فاقتلوني وإن اتقف فسوف ترون بالي
فابرخ غازياً اهدي رعيلاً أوّم سواد طود ذي نجال
و ابرح في طوال الدهر حتى أقيم نساء بجلة بالنعال

١. نفس المصدر، صص ٣٤-٣٥.

٢. يوسف خليف، المصدر السابق، ص ١٨٣.

٣. الشغرى، المصدر السابق، ص ٥٢.

٤. وسف خليف، المصدر السابق، صص ١٨٦-١٨٧.

٤- وصف الأسلحة

السلاح هو الوسيلة الطبيعية للدفاع عن النفس عند الصعاليك، وهو يشكّل مع قوة قلوبهم وقوة أرجلهم ثلوثاً يتكامل في الفرد ليكون قوياً شجاعاً ويحقق أهداف الغزو والسلب، ويجمع هذه القوى الثلاث تأبّط شراً في رثائه للشنفرى حيث يقول:

فلا يبعدن الشنفرى وسلاحه الحديدَ وشدتّ خطوه متواترَ
إذا راع روع الموتِ راع وإن حمى حمى معه حدّ كريم مصابرَ

والأسلحة التي أتت في شعر الصعاليك هي نفس الأسلحة التي كانت موجودة في العصر الجاهلي سواء منها أسلحة الهجوم مثل السيف، والرمح، والقوس، والسهم، أو أسلحة الدفاع مثل الدرع، والترس.^٢

فالشنفرى مثلاً يصف السيف والقوس ويعدهما من الأشياء الثلاثة التي تغنيه عن غيرها

ويقول:

وإني كفاني فقد من ليس جازياً بحسني، ولا في قربه متعلّ
ثلاثة اصحاب، فوآذ مشيع وابيض إصابت وصفراء عيطل
هتوف من الملس المتون يزيئها رصائع قد نيطت إليها ومحمل

والسيف عند عمرو بن بركة جلّ ماله لا يفارق عنه و يعتبره أحد أركان الثالوث (القلب الذكي، السيف القاطع، الحمية) الذي يعتمد عليه من يريد أن يبتعد عن المظالم في ذلك المجتمع الذي يدين بشريعة القوة:

وكيف ينام الليل من جلّ ماله حسام كلون الملح ابيض صارم
الم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليلاً إذا نام الخلي المسالم
متى تجمع القلب الذكي و صارماً و انفا حمياً تجتنبك المظالم

والصعاليك يصفون أسلحة الهجوم أكثر من أسلحة الدفاع ولعل ذلك يرجع إلى طبيعتهم في الإغارة.

١. لويس شيخو، المجاني الحديثة، قم، ذوي القربى، الطبعة الرابعة، ج ١، ص ١٨.

٤. يوسف خليف، المصدر السابق، ص ١٨٩.

٣. الشنفرى، المصدر السابق، ص ٦٠.

٤. أبو علي القالي، الأمالي في لغة العرب، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨م، ج ٢، ص ١٢٣.

٥- أحاديث الفرار

يتحدث الشعراء الصعاليك كثيراً عن فرارهم وهربهم ويتكلمون عنه دون أي حرج أو خجل، وهذا طبيعي لمثل أولئك الناس الذين يعتمدون في حياتهم على الغزو، فإنهم يفرون عند الصعاب ليعيدوا الكرة مرة ثانية ويصورون في فرارهم سرعة العدو ويعتزون به، فنجد تأبط شراً مثلاً يعتمد على ساقيه هو ورفيقاه حينما حصرتهم بجيلة، وكادت تفتك بهم لولا سيقانهم وحسن تخلصهم، ويصور قصة نجاته ويصف شدة عدوه ومطاردة أعدائه إياه فيقول:

نجوتَ منها نجائي من بجيلة إذ القيتَ ليلَةَ خبطِ الرهطِ اوراقِي
ليلَةَ صاحِوا واغروا بي سراغهم بالعيكتين لدى معدي ابنِ براقِ
كأنما حثحثوا حصاً قوادمه أو أمّ خشفٍ بذِي شتٍ وطَباقِ

و يدافع أبو خراش الهذلي عن فراره و يقرّر أن فراره ليس لجبنه لأنه إلى جانب فراره مقاتل شجاع و لكن حينما يرى أن القتال لا يجديه شيئاً يرجح الفرار على القتال:

فإن تزعمي اني جبنت فإني افرّ و ارمي مرة كل ذلك
أقاتل حتى لا ارى لي مقاتلاً و انجو إذا ما خفت بعض المهالك

٦- الفقر وأثاره

لاشك أن أول ما نحسه في حياة الصعاليك هو الفقر الشديد الذي لازمهم منذ نشأتهم، والذي كان من أبرز أسباب الصعلة، ولذلك قد قرنت غاراتهم وغزواتهم بالفقر غالباً وبالمجاعة في أكثر الأحيان.

وقد صوروا في شعرهم حالهم مع الفقر، وشعورهم نحوه وصراعهم لمقاومته، فنجد تأبط شراً يصف نفسه بأنه لا يملك من الزاد إلا تعلقة تحول بينه وبين الموت، حتى برزت أضلاعه من النحول والتصقت أمعاؤه من الجوع فيقول:

قليل ادخار الزاد إلا تعلقة فقد نشز الشرسوف والتصق المعاء

١. عبدالحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧م ص ٢٣٣.

٢. يوسف خليف، المصدر السابق، ص ٢٠٩.

٣. عبد الحليم حفني، المصدر السابق، ص ١٨٦.

ويقول في محادثة بينه وبين الذئب، إنني مثلك لا أملك شيئاً وإنما اعتمد في معيشتي

كما تعتمد أنت على الفريسة:

وقربة اقوام جعلت عصامها	على كاهل مني ذلولٍ مرَّحل
ووادٍ كجوف العير قفر قطعته	به الذئب يعوي كالخليع المعيل
فقلت له لما عوى إن شاننا	قليل الغنى إن كنت لما تمول

وقد أشار الصعاليك في شعرهم إلى آثار الفقر في حياتهم فصوّروا الجوع الذي كانوا يعانونه كثيراً كما صوّروا الهزال ونحول الأجسام بصور مختلفة مؤثرة.

٧- صراع الهوان في المجتمع

فكما صور الشعراء الصعاليك في شعرهم صراعهم الشاق مع الفقر وآثاره، كذلك صوّروا صراعهم مع الهوان الذي كانوا يعانونه في مجتمعهم الطبقي، لأنهم كانوا يجدون أنفسهم في الموضع المهين من المجتمع، ولم تقبل نفوسهم بحكم طبيعتها وتكوينها هذا الموضع، ولم يكن أمامهم لتفادي هذا الهوان إلا الاعتماد على أشخاصهم في قوتهم وعنفهم، وهذا ما نجده في شعرهم بصورة واضحة بحيث تنبئ عن إحساسهم العميق بهذه المعاني وتأثرهم بها. فالشنفري مثلاً يعبر عن نفوره من إذلال نفسه باستجداء حسنة الناس مفضلاً استتاف التراب على ذلك فيقول:

واستفّ ترب الأرض كي لا يرى له	عليّ من الطول امرؤ متطوّل
ولولا اجتناب الذام لم يلف مشرب	يعاش به إلا لدي وماكل
ولكن نفساً مرة لا تقيم بي	على الذام إلا ريتما اتحول

ومما لا شك فيه أن هذه المعاني الكثيرة التي كرّروها في شعرهم وأكّدوا شعورهم بها من هوان الفقير في مجتمعهم ومن إيثارهم الموت على ما يلقاه الفقير من هوان ومذلة، تدل على أن اتجاههم إلى الصعلكة لم يكن سببه مجرد الحصول على لقمة العيش أو الوصول إلى الغنى، وإنما كان يحمل مع ذلك الرغبة في إثبات كيان لهم في المجتمع كما يحمل النفور الشديد من أن يكونوا مجرد أفراد في القطيع الذي يسوقه السادة الأغنياء، ويحمل أيضاً الاصرار الشديد على أن يظهرُوا لأنفسهم كياناً يشعر به

أقوال الحضارة الإسلامية، العدد «الخامس والعشرون»، ربيع و صيف ١٣٨٩ هـ. ب.

١. نفس المصدر، ص ١٨٦.

٢. الشنفري، المصدر السابق، صص ٦٢-٦٣.

الناس ويحسبوا حسابه.^١

أهم خصائص شعر الصعاليك^٢

ويمتاز شعر الصعاليك بعدة خصائص نشير في ما يلي إلى أهمها:

- ١- أنه يصوّر نوعاً من الأخلاق والنزعات لا نجد في غيره.
- ٢- شعرهم يصوّر نفسيّاتهم وأعمالهم، فهو صدى لواقع حياتهم، لأنهم صوّروا في شعرهم البيئة البدويّة التي يعيشون فيها بكل مظاهرها من الصحراء القاسية بشعابها و جبالها و أغوارها ولياليها المظلمة و حيواناتها الشاردة، و صوّروا مظاهر الطبيعة كما شاهدوها من طلوع الفجر و غروب الشمس و البرق و الرعد و السحاب و المطر، و صوّروا الواقع الذي يعيشونه بكل ما فيها من خير و شر و بكل ما فيها من عيوب و محاسن.
- ٣- يتميز شعرهم بوحدة الموضوع، فليس فيه مقدمات تمهيدية من غزل و بكاء أطلال و وصف لرحيل أو رواحل أو استطراد إلى موضوع آخر و نجد في مقطوعاتهم و أكثر قصائدهم وحدة موضوعية بحيث نستطيع أن نضع لكل مقطوعة عنواناً خاصاً بها.
- ٤- أكثر شعرهم مقطوعات لا قصائد، ولعل مرّة ذلك إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس لم يألّفوا التمهّل والتروي والتنميق، فجاء شعرهم صورة لحياتهم.
- ٥- ليس في شعرهم غزل، وكيف يتغزّل من يقضي نهاره يترقب، وليله يترصد ولا يستقرّ في مقام.
- ٦- في شعرهم مظاهر قصصية، حيث إنّ الشاعر الصعلوك يسجّل في شعره كلّ ما يدور في حياته الحافلة بالحوادث المثيرة التي تصلح مادة طيبة للفن القصصي. فحوادث مغامراتهم و أخبار فرارهم و تشرّدهم في أرجاء الصحراء و تربّصهم فوق المراقب في انتظار ضحاياهم، كل هذا و غيره من مظاهر حياتهم مادة صالحة للفن

١. عبدالحليم حنفي، المصدر السابق، ص ٢٠٢.

٢. أحمد حوفي، المصدر السابق، ص ٣٠٧. و يوسف خليف، المصدر السابق، صص ٢٥٣-٢٧٦.

القصصي و قد استغلّ الشعراء الصعاليك هذه المادة في شعرهم أحسن استغلال.

خاتمة البحث

الصعاليك هم المتمردون على الأوضاع و التقاليد القاسية السائدة في المجتمع الجاهلي. و نجد من الصعاليك في العصر الجاهلي مجموعة من الخلعاء و الشذاذ الذين خلعتهم قبائلهم لكثرة جرائمهم، و مجموعة من أبناء الحبشيات السود الذين نبذهم آبائهم، و مجموعة لم تكن من الخلعاء و لا من أبناء الحبشيات إلا أنّهم احترفوا الصلعة.

يتميز الصعاليك في حياتهم و أخلاقهم بالفقر و حدّة الجوع، و الثورة على واقعهم الاجتماعي و الابتعاد عن الحياة القبلية و ما فيها من أعراف ظالمة، و بالفخر و بالشجاعة و العدو السريع و تحمّل المشاق ابتعاداً عن الذل، و الإيثار و الكرم. و طموح الصعاليك في حياتهم هو الغنى و لكنهم لكرّمهم لا يدّخرون المال حتى يصبحوا أغنياء، بل يوزّعونه على الفقراء و الأيتام و المحتاجين.

كان للصعاليك شعر كثير قد ضاع جزء كبير منه و وصل إلينا بعض منه عن طريق الكتب الثقافية العربية، و مجموعات المختارات من شعر الشعراء، و كتب التراجع.

تطرق الشعراء الصعاليك في شعرهم إلى موضوعات مختلفة ترتبط بواقع حياتهم مثل المغامرة، و المراقبة، و التوعّد و التهديد، و وصف الأسلحة، و أحاديث الفرار، و الفقر و آثاره، و صراع الهوان في مجتمعهم. و يتميّز شعرهم بميزات منها تصوير واقع حياة الصعاليك و أخلاقهم، وحدة الموضوع، كونه بصورة المقطوعات بدل القصائد، خلوه من الغزل و المقدمات الطللية، و الصبغة القصصية فيه.

المصادر

ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤م.

ابن منظور، لسان العرب، بيروت، دار احياء التراث العربي، الطبعة الاولى، ١٩٨٨م.
أدرشب، محمد علي، الأدب العربي وتاريخه حتى نهاية العصر الاموي، طهران، سمت،

- الطبعة الرابعة، ١٣٨١ هـ. ش، ٢٠٠٢ ميلادي.
- الاصفهانى، أبو الفرج، *الأغاني*، تحقيق، سمير جابر، بيروت، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٩٥ م.
- الجاحظ، عمرو بن حرب، *حياة الحيوان*، تحقيق عبد السلام هارون، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٦ م.
- حفي، عبد الحليم، *شعر الصعاليك منهجه وخصائصه*، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٧ م.
- حوفي، احمد، *الحياة العربية من الشعر الجاهلي*، القاهرة، دار نهضة مصر، الطبعة الخامسة.
- الخفاجي، محمد عبد المنعم، *دراسات في الأدب الجاهلي والإسلامي*، بيروت، دار الجيل، ١٩٩٢ م.
- خليف، يوسف، *الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي*، القاهرة، دار غريب، ١٩٨٨ م.
- السليك بن السلوك، *ديوان السليك*، تحقيق سعدي الصناوي، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩٤ م.
- الشنفري، *ديوان الشنفري*، شرح و تحقيق اميل بديع يعقوب، بيروت، دار الكتاب العربي، الطبعة الأولى، ١٩٩١ م.
- شيخو، لويس، *المجاني الحديثة*، قم، ذوي القربى، الطبعة الرابعة، ١٩٩٨ م.
- ضيف، شوقي، *العصر الجاهلي*، القاهرة، دار المعارف، ١٣٦٦ - ١٣٦٩ هـ.
- القالبي، أبو علي، *الأمال في لغة العرب*، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٩٧٨ م.
- مروة، محمد رضا، *الصعاليك في العصر الجاهلي*، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٩٩٠ م.
- الميداني النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد، *مجمع الأمثال*، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، بيروت، دار المعرفة، ١٣١٠ هـ.